بقاع الجمال

وأثرها في الشعر والادب

لمحمد عبد الغني حسن

في كل اقليم من أقاليم الدنيا بقاع جميلة ، ومواطن تفتن النظر وتختلب اللب وتقف أمامها العيون مسحورة لتستوعب جمالها ، وتحاول ان تصل الى سر الحسن والملاحة فيها

ومن جمال البقاع ومحاسن الاصقاع ما يكون وليد الفطرة ، وصنع الطبيعة كالأنهار الجارية والوديان المتربة ، والجبال الرُّعن ، والقمم الشم ، والغدُر الرائقة والرمال المنبسطة او المتموجة كثبانا خلف كثبان ، وآكاما إثر آكام

ومن جمال البقاع ما يكون مجلوباً لا جبلّة ، وصناعة لا فطرة ، كالبحيرات الصناعية والغدر المنشأة ، والحدائق المتضدة تنساب فيها الجداول . وتقام فيها القصائد . وتشذب فيها الحمائل ، وتنضد فيها الأرائك ، وتفرش أرضها بالحصى الملون ، والرمل المتناثر ، وتكسى أنحاؤها بالعشب الناضر ، والكلأ الأخضر

وهذه البقاع الجميلة خليقة ان تسمى مواطن الجمال ، ولها في الادب أثر كبير ، ولها عليه سلطان واسع . وهي ألزم للأديب لزومها للمصور البارع او الرسام المبدع . واذا كان في تاريخ الفنون الجميلة جملة صالحة من اللوحات الخالدة سجلت عليها ريشة المصور لطائف من الجمال فان في الادب جملة صالحة من قصائد رائعة ومن قطع خالدة سجلت جمال هذه البقاع في شعر جميل او نثر فني بديع

ولا يستقل بذلك الادب العربي وحده ولا ينفرد به ، ففي الآداب الأجنبية كثير من التراث الأدبي اهتم بمواطن الجمال فصوّرها وأحسن تصويرها

على ان هذه البقاع الجميلة قد تكون من ناحية أخرى مصقاة لعقل الشاعر او الكاتب كما تكون وحياً له والهاماً لأدبه

فمنطقة نيس (الاپثون) بانكلترا من بقاع الجمال . ويكفيها فخراً أنها أنتجت البشرية أعظم شاعر عرفته الى اليوم وهو شاكسبير » ولقد أعجبنا حينما زرنا هذه المنطقة بالجمال الطبيعي الساند

فيها والطير التي يسمعها ولم تكن عن لزاما للصحف الأدبي الخاطر أن يذهب الى « شاكسبير » ولاسيما أن الذين قرأوا الشاعر الانكليزي « Wordsworth » ورد سورث اسوا به تعديه بصيرة وتنبيا بمحاسنها حتى أنه ليكاد يذوب فيها . ولقد عقد الاستاذ « كامباباك » المربي الانكليزي لعناصر فصلاً في كتابه عن التربية اختص به شاعر الطبيعة « ورد سورث » وبين ضرورة تعهير الطفل بعواطف الجمال ليكون ذلك عنصراً من عناصر تربيته

وهذا الشاعر مدين بحبه للطبيعة الى بقعة من بقاع الجمال هي منطقة « البحيرات » في انكلترا . فقد عاش فيها وسمع خرير مائها ، وحفيف أشجارها وتسلق بعض جبالها — كجبل كولمبون — وسجل كثيراً من هذه المناظر الفاتنة الساحرة في شعر تصويري جميل . وكانت قرية « حرازمير » الهادئة الجميلة في منطقة البحيرات أحب مواطنها الى نفسه فعاش فيها وعاش تحت ثراها — وأنيح لنا أن نزور هناك قبره ومجانبه قبر أخته التي كانت تهيم أيضاً بهذا الجمال

وكان الشاعر الأميركي المشهور « هنري دافيد ثورو » يعشق الطبيعة ويأنف اليها وبنى لهُ كوخاً قرب غدير (والدن) ألف عنده الطيور والحشرات والأسماك . وفهم تغريد الطير وصرير الجنادب وعاش في عزلة عن الناس أخرج في خلالها كتابه الخالد (والدن) الذي يعد بدعاً في الأدب الانكليزي

ولقد كانت بحيرة « ليمان » بسويسرا الهاماً للشاعر الفرنسي العظيم « لامارتين » وقصيدته « البحيرة » مشهورة مذكورة مترجمة الى الأدب العربي

وفي ولاية « هامشير الجديدة » بأميركا الشمالية . وعلى ضفاني نهر « ميرماك » الجميل تغنى « جيمس رسل لويل » الأميركي كثيراً من أناشيده الخالدة . وكان مثل صاحبه « ثورو » يفهم الطبيعة كل الفهم . ويحسن الأصغاء اليها اذا صوتت بالنسم الرقيق أو الزعزع العنيف . وكتابه العظيم « من شباك غرفة مطالعتي » أثر من آثار الجمال الطبيعي في نفسه

***

ولشعراء العرب نصيب عظيم من تصوير جمال البقاع ، وتسجيل المناظر البهيجة الساحرة التي تركت في نفوسهم أثراً . وهذه البقاع الجميلة كثيرة في أنحاء المملكة العربية الاسلامية وهي متباينة المناظر ، متنوعة المشاهد ... ففي شبه الجزيرة الرمل والصخر والأباطح الفيح التي تسيل بأشتات المطايا . . . وفي العراق الأنهار والمحلات والجسور ، والبرك والقصور . وفي الشام الغوطات الكثاف كغوطة دمشق . وفي الاندلس الرياض والأزهار ، والبراعم والنوار والوديان والأنهار . وفي مصر النيل والمراكب فيه صاعدات منحدرات .

ولا شك أن البحتري قد وفق التوفيق كله وأجاد الأجادة كلها في وصف (بركة المتوكل)

فقصيدته فيها تجمع الى حسن التصوير حلاوة الرنين وحسن النغم ولا شك أن القارىء يؤثر لوصف البركة والنجوم متكئة على سطحها بقوله

اذا النجوم ترامت في جوانبها ليلاً حسبت سحاباً ركّبت فيها

والقصيدة معروفة مشهورة متناقلة فلا داعي الى تدوين أبياتها. والبحتري مجيد الاوصاف مبدع فيها وليس كثير من الشعراء أوتي تلك الموهبة فهي تحتاج الى العين الحساسة الدقيقة — كعدسة التصوير الجيدة — والى الشعور المرهف، والى الندوة الشعرية في التعبير عن الجمال

ولقد أبدع البحتري أيما ابداع في وصفه الرياض الجعفرية في قصر الجصري الذي بناه المتوكل. وهي بقعة شهيرة من بقاع الجمال في الأدب العربي. اسمعه يقول: —

مخضرة والغيث ليس بساكب ومضيئة والليل ليس بمقمر
ملأت جوانبها السماء وعانقت شرفاتها قطع السحاب المعطر
ونسيم دجلة تحته فضفاضة من لجة غمر وروض أخضر
شجر تلاعبه الرياح فتثني أعطافه في ساعة متفجر

وليس من الضروري أن يكون المكان مفرطاً في الجمال أو بالغاً النهاية في الحسن الطبيعي ليمنح ذلك الشاعر على تسجيله. فقد تكون البقعة جميلة لما للشاعر فيها من ذكريات، ولما له فيها من حبايات مضت، وعلاقات انقطعت. وحينئذ يذكرها بالحسرة ويود لو عاد سالف زمانها، ومنصرم أيامها «كالحجون» و«الصفا» فقد ورد الشعر بخصوصها كثيراً وهما ليسا بموطن فائق للجمال

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

على انه من المحقق ان في شبه الجزيرة القاحلة وديانا كثيرة رأى الشعراء فيها نوعاً خاصاً من الجمال فدوّنوه وتغنوا به

وأكثر الأودية حظاً، وأخلدها اسماً هو الذي خلدته حدونة الاندلسية بهذه الأبيات الرائعة، وقد نسبت في بعض الكتب الى ابي المطرّف: —

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا — على ظمأ — زلالاً ألذ من المدامة للنديم
يروح جماه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

وبعض البقاع — كبعض الأناسي محظوظ — تصادفه الشهرة وتدور حوله مجلة السمر، فيدور اسمه، ويخلد ذكره، ليت قاله شاعر، او سطر دوّنه ناثر. وأصدق مثال على ذلك

« شعب » بوّان . فقد جلدته أبيات النفي التي مما هذا البيت : —

مغاني « الشعب » طيباً في المغاني بمنزلة الربيع من الزمان

***

واذا نظرت الى الأدب العربي وجدت ان أكثر ما يتعلق منه بالوصف ومحاسن الطبيعة يرجع الى الأندلسيين . ولهم في ذلك الحق كله . فبلادهم جميلة ناضرة . ورياضهم مثمرة زاهرة وقد خرج العرب من الجدب الى الخصب ، فأحسنوا الوصف وأبدعوا المقال . وحقٌ لابن خفاجة أن يقول : —

ان للجنة بالأندلس محتلى مرأى ومرتًا نفس
فسنا صُبْحتها من شفب ودجى ظلمتها من لمس
فاذا ما هبت الريح صبا صحت واشوقي الى الأندلس !!

ولقد ذكر الشعراء الاندلس على طريقة التعميم ، وبعضهم خصص فوصف وادياً بعينه أو روضة بذاتها أو جبلاً بنفسه فجاء وصفه كالأصل والصورة في المرآة — ومن ذكر الاندلس على وجه التعميم ابن سفر المريني حيث يقول : —

وكيف لا يبهج الأبصار رؤيتها وكل روض بها في الوشي صنعاء
أنهارها فضة والمسك تربتها والخز روضها والدر حصباء
والهواء بها لطف يرق به من لا يرق وتبدو منهُ أهواء

***

ومن المواطن الجميلة في الاندلس « العامرية » وهي نزهة جميلة من نزه الدنيا . فيها الشجر الملتف ، والغصن المورق ، والطير المغرد ، والجدول المصفق ، والزهر الناضر والنرجس الضاحك ، أنشأها « المنصور » الشهير بن ابي عامر ووصفها ابن العريف بقوله من أبيات طويلة : —

انظر الى النهر فيها ينساب كالثعبان
والطير يخطب شكرا على ذرا الاغصان
والقضب تلتف سكرا بميس القضبان
والروض يفتر زهرا عن مبسم الاقحوان
والنرجس الغض يرنو بوجنة النعمان

وكانت أشبيلية جميلة الموقع ، جميلة الضواحي فاتنة الدساكر . وبها من الوديان كثير . الاّ ان من بين هذه الوديان الكثيرة نذكر وادي الطلح في شرقيها وكان يرده الزائرون ، طلباً للعافية والتماساً للراحة ، واستجماماً للنفس . وفيه ما في وديان الاندلس من الماء والنماء . وكان

الشاعر المعروف نور الدين بن سعيد المغربي يتردد عليه في صحبة حبيب ، ومما من رقيب فذكره بأبيات كثيرة منها هذه الأبيات : —

وتذكر بوادي الطلح عهداً لنا لله ما احلى وما اطيبا
بجانب العقيق وقد مالت الأغصان والزهر يبث الصبا
والطير مازت بين أغانيها وليس الا سجعاً مطربا

ولشعراء الشام شعر كثير في وصف الطبيعة وذكر مواطن الجمال. ولعل اليقعة التي سجلها الشاعر بقوله

جوها سجسج وفيها نسيم كل غصن الى لقاه يميل
أيه يا ماء نهرها العذب صافي حبذا يا زلال منك السليل
أيه يا ورقها المرنة غني فحياة النفوس منك الهديل

لعلها مما يستحق التصوير في هذا الشعر الرقيق

(نهر بردي) بالشام من أهم البقاع وأكثرها دوراناً في الشعر العربي. وقد ذكره المرحوم احمد شوقي بك في قصيدته التي اولها : —

سلام من صبا بردي أرق ودمع لا يكفكف يا دمشق

كما ذكره في كثير من قصائده الشاميات . . . وذكره أيضاً الشاعر الدمشقي حسان بن نمير يخاطب صلاح الدين الأيوبي : —

(ويا بردي) لازال ماؤك باردا وماء الحيا من ساحتيك نمير
أبى العيش الا بين أكناف جلق وقد لاح فيها أشمس وبدور
وكم بحمى (جيرون) سرب جآذر حبائلهن الماء وهو نفور

والآبار والعيون من مواطن الجمال الخالدة المخلدة في الشعر . وقد رأيتُ بعض العيون المشهورة في سويسرا وفرنسا وانكلترا وأدركت سر الجمال فيها . الا لمن الجمال هناك صناعي مجلوب بالنظرية والتجميل ولكنهُ محل كل حال جمال

وفي الشعر العربي كثير من الآبار التي خلدها الشاعر ، وأبقاها الشعر . ومن ذلك (بئر الحجيلاء) التي قال فيها يحيى بن طالب الحنفي مشوقاً : —

ألا هل الى شم الخزامى ونظرة الى قرقري قبل الممات سبيل
فاشرب من (ماء الحجيلاء) شربة يداوى بها قبل الممات عليل ؟؟

ومنها أيضاً (بئر خدوراء) التي سجلها جعفر بن علبة الحارثي بقوله : —

ألا هل الى ظل النضارات بالضحى سبيل وتغريد الحمام المطوق ؟
وشربة ماء من (خدوراء) بارد جرى تحت أفنان الأراك المسوق ؟

ومن بقاع الجمال في الشعر العربي الديار جمع دير وكثيراً ما ورد وصفها في الشعر وتسابق الشعراء في تسجيل جمالها والاشادة بها سمعنا . ويظهر فيطالع وصفها أنها لم تكن ديار عبادة فحسب ولكنها كانت ديماً من بقاع الجمال فتنَّ الفن الصناع في توشيتها وتحليتها ، وتبدع يد الفن في اقامتها وتشييدها وتحيط الطبيعة كلها بدائع من الطبيعة ما بين ماء يجري ، ونسيم يسري ، وشجر تتعالى أغصانه ، وتتعانق أغصانه ، وزهر أنيق الألوان ، مختلف الأشكال ، وغدر جارية وعيون ساهية

والشواهد على ذلك من الشعر كثيرة مبثوثة في كتب الادب ، مذكورة في معاجم البلدان وللصنوبري الشاعر الوصاف في ذلك كلام يتند ، ونفسٌ بطول . اسمعهُ يقول في (دير زكّى) قرب الفرات :—

شاهد بل ما تشف باقيات	بأكرم معهدٍ وأنقى
ضاحكها الفرات بكل فن	تضحك عن اقاح او لجين
كأن الأرض من حبر وصفر	عروس تجتلى في حلتين
كأن عتاق خمري دير زكّى	— اذا اعتنقا — عتاق متيمين ..
أيا متنزهي في دير زكّى	ألم تك نزهتي بك نزهتين ؟
ويا سفن الفرات بحيث تجري	هُويَّ الطير بين الجهتين
تطارد مقبلات مدبرات	على عجل تطارد عسكرين
تُراثا واحلبكما عهدنا	بوصل لا تغصهُ بين ؟؟

فهذه الابيات تصور لك اثير صورة جميلة وقد ضاحكه مياه الفرات ، وبدت فيه الازهار كأنها وشي ثياب العروس ، وجرت أمامه سفن الفرات صاعدة ومنحدرة ...

على أن لكشاجم الشاعر المشهور وصاحب الريشة المصورة الماهرة أبياتاً في وصف دير القصير بمصر يقول فيها :—

أما ترياق الروض كيف بكى الحيا	عليهِ فأضحت ضاحكات زخارفه
تسربل موشيَّ البروج وأعلمت	حواشيهِ — من نواره — وبطارفه
وقد نشر الوسمي بالطل فوقهُ	لآلىء كالدمع الذي أنا ذارفه
وأعرس فيهِ بالشقيق نهاره	فأشبع من ضم العذارى ملاحفه
ولاحظهُ بالنرجس الغض أعين	فواتر اعياء الجفون ضعائفه ...

وقد أضافت كل هذه البقاع الجميلة ، والمواسم الفاتنة ثروة كبيرة الى الأدب العربي خليقة بالدرس والمعاودة من حين الى حين